وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أنا المعرّي

(رهين المحابس)

مسرحية

من المسرح ٢٥

سمير عدنان المطرود



أنـا المعرّي

(رهين المحابس)



تصميم الغلاف

أحمد يزبك

سمير عدنان المطرود

أنـا المعرّي

(رهين المحابس)

مسرحية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٤م

أنا المعري رهين المحابس / سمير عدنان المطرود .- دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتـــاب، ٢٠١٤م.- ١١٢ ص؛
٢٠ سم.

(من المسرح؛ ٢٥)

١- ٨١٢,٠٤١ م ط ر أ ٢- ٨١٢,٠٠٩٥٦١
م ط ر أ ٣- العنوان ٤- المطرود

مكتبة الأسد

من المسرح

«٢٥»

المعرّي وحيداً.. على المسرح!

أ. د. حسين جمعة[*]

ما من مرة تناولت الكلام على المسرح إلاّ وجدت رأي الناقد العربي الكبير الدكتور المرحوم إحسان عباس يطوف بخيالي في هذا المقام إذ قال يوماً : (أحسب أن الأجناس الأدبية التي باتت اليوم معروفة الحدود والأحياز كالقصة القصيرة، والرواية، والمسرحية، والخاطرة الأدبية، وقصيدة النّثر كانت موجودة في تراثنا العربي، ولكن ليس بهذه الحدود الصّارمة، ولا بهذه التطورات التّي أصابتها فجعلتها مجلوّة بخصائص وصفات مايزت ما بين جنس أدبي وآخر على الرغم من وجود ما هو مشترك ودغيم في داخلية كلّ منها)!

(*) أ. د. حسين جمعة : كاتب وناقد وباحث، أستاذ في جامعة دمشق - رئيس اتحاد الكتاب العرب .

وما من أحد قرأ (ألف ليلة وليلة) إلاّ وجد فيها ما هو أكثر من رواية من حيث توافر العناصر والسمات القصصية من تعدد الشخصيات والحوارات، والالتفات نحو الأزمنة، إلى توليد الأحداث والأخبار، وتتالي الأجيال وترادفها... ففي هذا المؤلف الأدبي التاريخي والاجتماعي نجد أيضاً قصصاً قصيرة وحكايات، ومحاورات ثنائية على شكل سؤال وجواب، وعلى شكل خبر والتعليق عليه ؛ ما يجعل ذلك كلّه قريباً من المسرحية مثلها مثل الحوارات القائمة بين (السيد والعبد)، أو الحوارات القائمة ما بين (الملكة) و(وصيفاتها) والتي دارت حول عالم الرجال، ومميزات الرجولة، وأنواع الزينة والثياب؛ أو الحوارات المعقودة حول المواسم والفصول والمناسبات، والمزاوجة ما بين الغناء الشّعبي والحوارات التي تسبقها أو تليها... ومن ثمّ ؛ من منا ينسى العرض المسرحي الكامل الذي يقام من خلال (صلاة الاستسقاء) وما فيه من حوارات وأغنيات ومفارقات قد تتناول عالم الأغنياء والفقراء، والسّماء والأرض، والكرم والبخل، والاجتماع ما بين الذّكور والإناث، والتراشق بالماء

طلباً لمطر السّماء؟! وكذلك هي الحوارات التي اشتمل عليها تراثنا والخاصة بالمنافرة أو المفاخرة ما بين الفرسان وبخاصةً قُبيل احتدام المعارك أو المواجهات الحربية... والتي تبدأ بالمناداة على الفرسان، والتعريف بهم، وبيان أسباب المواجهة، وتقديم كل فريق وجهة نظره، وتبادل الرد عليها لدحضها في الغالب.

ومما لا لبس فيه أن القرن الهجري الرابع كان قرناً متميزاً ثقافياً على عكس ما كان عليه من تمزق أو تفتت الأقاليم التي استقلت بنفسها، ولم تترك للخليفة العباسي سوى الدعاء على المنابر والإجراءات الإدارية فقط... فقد استقل (آل بويه) بما وراء النهر في خراسان وأصفهان والري، واستقل الغزنويون في أفغانستان، وآل حمدان في الموصل وحلب، وكافور الإخشيدي في الشّام ومصر، ومن بعد انفرد الفاطميون بحكم مصر، والقرامطة في البحرين، والأمويون في الأندلس.. تلك الأقاليم - على تنافرها وتعددها - تنافست فيما بينها على استقطاب الأدباء والكتّاب والشعراء وأهل الفقه والفلسفة والعلوم واللغة... فضلاً عمّا قدّموه من

ترجمات عن اللغات الفارسية والهندية والسريانية واليونانية في إعلاء شأن الثقافة..

وعرف هذا العصر تنامي أثر الفلسفة، وكتابة الرسائل، والعمل في الدواوين، وتدوين الأفكار والمحاورات في مجالس العلم الخاصة، ومجالس الخلفاء والوزراء والأمراء عامة... وكذلك نرى أن الروح المسرحية تجلَّت في عدد من أعمال المؤلفين مثل الفارابي في (المحاورات) وأبي حيان التوحيدي في (الهوامل والشوامل) و(المقابسات) وأبي العلاء المعرّي في (رسالة الغفران).

لقد انقاد ذلك كله إلى قلمي وأنا أهمّ بالحديث عن مسرحية (أنا المعرّي/ رهين المحابس) للكاتب سمير عدنان المطرود صاحب الجهد المعروف في الكتابة المسرحية، وقد عركته سنوات طويلة في حقل العمل المسرحي وصبغ نصوصه المسرحية بروحه الأدبية، فتنقل ما بين أنماط شتّى في دنيا الكتابة المسرحية.

هنا، في هذا النص المسرح، يحاول سمير المطرود تقديم مسرحية تعتمد الشخصية الواحدة (المونودراما)، التّي تقوم

بكل الوظائف والموجبات المسرحية على منصة العرض، من حوار منفرد مع آخر أو آخرين، ومن انتقال من مكان إلى آخر، ومن موضوع أو حدث إلى موضوع وحدث جديدين، ومن زمن إلى زمن. شخصية تبني المشاهد والحوارات وتنهيها في دورات مقطعية على شكل دوائر يفضي بعضها إلى بعضها الآخر.. في تصاعد ينتهي بها إلى الخاتمة.

تقوم المسرحية على شخصية أبي العلاء المعرّي (شاعر الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء) وعلى عمله المجلي واقعاً وخيالاً (رسالة الغفران)، وما يسود هذه الرسالة من مساءلات وأجوبة، وأخبار وأحداث، وتوصيف وتقويم وتقييم للموضوعات والشخصيات التي يرد ذكرها تباعاً من خلال سلسلة متفاعلة من الأسئلة المقصودة بعينها.

وتتجلى سيرة أبي العلاء المعرّي - في هذه المسرحية - منذ ولادته حتى وفاته، مروراً بمرضه، وفقده لبصره بسبب مرض الجدري، ودرسه على يديّ والده، ثم طوافه في الأصقاع لكي ينهل العلم على أيدي شيوخه، في حلب،

وبغداد، ومن ثم عودته إلى مسقط رأسه في (معرة النعمان) حين أخبر بأنّ والدته مريضة على فراش الموت.

يطوف أبو العلاء المعرّي على أرضية المسرح (منصة العرض) وحيداً، تقوده عصاه، ليتحدث عن علمه، وشيوخه، وتلامذته، وأفكاره، وصغره، وعصره، والعلوم السائدة، والظواهر الثقافية الجديدة كالتّصوف... ويناقش آراء الآخرين التي أصابته بوصفه صاحب عزلة وسلوك وموقف من الحياة، والحكام، والعلوم، والعلماء، والفنون، وقضايا الدين (الدين والآخرة، والعقيدة)، علماً أنه ناقش آراء الآخرين في كتاباته وشعره ...، وبذلك كان يتطرق، -وعلى نحو فانتازي- آراء الآخرين التي جاءت بعد وفاته وبسنوات طويلة، كأن يناقش مبدأ العقلانية، وإمامة العقل، من خلال الحديث عن ديكارت، وبين الاثنين ما يزيد على قرن من الزّمان. وكذلك كان حديثه عن مفهوم (التفكيكية) مثلاً، أو ردّه على ما قاله الدكتور طه حسين في كتابه المعروف (تجديد ذكرى أبي العلاء)، فردَّ على الأفكار والآراء من خلال (قفزة في الفانتازيا الزمنية) محاججاً لكي يقول: إنه

كان صاحب السّبق في مبدأ الشك قبل ديكارت... ومن ثم سبق كل من تحدث عن العقلانية في مبدأ الشك واليقين... فهو لم يشكك بالشعر الجاهلي كما أراد (طه حسين) أن يقول.. ثم إنَّه يخالف تحول فلاسفة العصر الوسيط في أوربا الذين قالوا (آمن كي تعقل) فقال (اعقل كي تؤمن)؛ لأنه اهتّم بالعقل وأعطاه مرتبة الإمامة ... ثم كان يعتقد بأن النصوص الدينية (الشروح والتأويلات) يشوبها التحريف والتعارض والفهم الخاطئ. لذلك أوكل إلى العقل مهمة اتخاذ الحكم المناسب واختيار ما لا يعارض المنطق! ويقول: إن العقل لدى الفلاسفة هو (العلم والعالم والمعلوم)، لذلك جعله مذهبه، ويتحدث أيضاً عن الماسونية، وهذا المصطلح لم يكن وارداً في زمنه !

ومن بعد - ولئلا يسهب المعرّي - وقد صار فوق منصة المسرح، وراح يتحدث عن فلسفته، ومعاني الإمامة، والنبوة، والفلسفة، والحكمة، والإيمان، والكفر، والجنة، والنار، والدنيا والآخرة، والذنب والمغفرة... ثم كان يتحدث بين وقت وآخر عن مؤلفاته، فينثر على سامعيه ما جاء في رسالة الغفران، وأسباب تأليفها، كونها جاءت جواباً عن

أسئلة (ابن القارح) (الكاتب الحلبي)، وجواباً عن أسئلة الشعراء العرب السابقين له في التجربة من مبدعي (الشعر الجاهلي، والشعر الأموي، وشعر صدر الدولة العباسية كالمتنبي، والبحتري، وأبي تمام)... ثم تناول، من بعد، سائر مؤلفاته التي وصلت إلى الناس، والتي تفرقت (أيدي سبا)، وضاعت، ثم تحدث عن شعره، ورواة شعره.

وحينما اعتمدت المسرحية شخصية واحدة، هي شخصية المعرّي، فإن الكاتب سمير عدنان المطرود اضطرها لأن تتحدث بضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب من أجل الحيوية في صميم أسلوب الالتفات؛ وفي إطار تداخل الأزمنة وتقاطعها، ومن أجل تعددية لعبة (الأصوات) لتبدو الشخصية الواحدة أكثر من شخصية مسرحية... فوفَّر لعمله الإمتاع والإفادة. فأبو العلاء المعرّي يظهر فوق منصة المسرح، شاعراً، وفيلسوفاً، وناقداً أدبياً، وفقيهاً، ومؤرخاً، ومحاوراً لعلماء وأدباء وفلاسفة سيأتون بعده (بعد مئات السنين) ويبدي رأيه في أفكارهم ومعتقداتهم، وبذلك اتسم الحوار بالمساجلة والمحاججة والجاذبية.

وعندي أن سمير عدنان المطرود آنس أبا العلاء المعرّي فقدمه بعيداً عن قسوة طبعه الموصوفة في كتب التراث، وجَمَّله فأخرجه عن قبحه الذي اعترف به هو نفسه، وطوّعه

لكي يتحدث بلغة واضحة عن شعره، وفلسفته، وأسباب كتابته للكثير من مؤلفاته، وجمع رأي الناظرين في أدبه وشعره مثل (د. طه حسين) إلى رأي المعرّي في ما قالوه من أجل تصيّد الآراء والأفكار، وقد نجح المؤلف سمير عدنان المطرود في تقديم عصر المعرّي وثقافته وأعلامه، كما نجح في تقديم زاد ثقافي ومعرفي ذي قيمة ملموسة استمدها من تجربة أبي العلاء المعرّي وثقافته، ومن ثقافة عصره أيضاً.

وإن كان لي من ملاحظات حول هذه المسرحية فهي آتية من نظرتي إلى ضرورة بناء شخصية ثانية تطوف بالمسرح، ولو على نحو خفي عن شخصية المعرّي، تقوم هي بالتعريف والحديث عن مؤلفاته، وعن (الفكر العلائي) لأنه من غير المعقول أن يقول أبو العلاء عن فكره (الفكر العلائي): كان الأكثر جمالاً. ومن الناحية الفنية (وكحلول إخراجية) أن تكون الشخصية الثانية حاضرة كرأي آخر (يعرّف بأبي العلاء ومؤلفاته، ويصفه، ويصف مؤلفاته) ما يعني أنها أكثر قبولاً، مثلما هي عصا المعرّي التي ظهرت

مساعدة له في حركته على منصة المسرح. وأرى أن حديث أبي العلاء عن محي الدين بن عربي، ود.طه حسين، وعبد الله الغذامي، وديكارت، والماسونية.. يحتاج إلى تسويغ مقبول منطقاً وعقلاً؛ وإقناع أكثر مما ألفيته في النص.

والأمر الأخير الذي أود الإشارة إليه، هو أمر فني محض، ويتمثل في أن لغة الحوار التي ينطق بها المعرّي ليست مناسبة لكثير من المصطلحات التي أطلقها، ... أي أَودُّ أن يُستنطق المعرّي بلغة وأساليب، ومصطلحات تناسب عصر المعرّي، لأن مصطلحات مثل: النسق الثقافي، البناء الثقافي، النسق الشعري، النص التداولي، النص الأدبي، الخطاب الثقافي، موت النقد الأدبي، الأنساق المضمرة، آلية التلقي، بناء سردي، نظام سردي، التفكيكية، نصوص مفخخة.. إلخ ليست من مصطلحات عصره، وهذا ما يجعل شخصية المعرّي بعيدة عن الواقع المألوف، على أهمية ما تقوله من لغة المؤلف ومصطلحاته.

وبعد، لقد تقحّم الكاتب الصديق سمير عدنان المطرود تجربة أدبية وشعرية غنية جداً، هي تجربة أبي العلاء

المعرّي وشعره، كما تقحّم شخصية إشكالية هي شخصية أبي العلاء المعرّي نفسه، وذلك لأنه قيل كثير من المقولات في مؤلفاته وأشعاره؛ مقولات تشابكت وتداخلت وتواجهت إلى حد التنافر والمواجهة، كما قيل في شخصيته آراء طوحت به ما بين الكفر والإيمان، والفلسفة والشعر، والجنة والنار، والسرد والشعر، والخيال والواقع، والسياسة والحياة الاجتماعية، والفقر والغنى، والدور المتعاظم والدور الوضيع.

وإنه لمن العجب والمدهش حقاً أن نرى شخصية أبي العلاء المعرّي شاعراً وفيلسوفاً وفقيهاً وداعية، وعالماً وسياسياً، وأين نرى ذلك كلّه؟ إنّنا نراه على منصة عرض مسرحي.. إن هذا الفعل، بحد ذاته، لفعل يستحق الثناء.

والله من وراء القصد..


الهيئة العامة
السورية للكتاب

استهلال لا بد منه

يعتبر النقد الموضوعي من المناهج النقدية الحديثة التي تحاول سبر أغوار النص الأدبي..

والوصول إلى معناه الحقيقي عن طريق استخدام كل المفاتيح الممكنة..

والنقّاد الذين يتعاطون هذا النوع من النقد يركزون على أنّ الموضوعات التي تبدو متناثرة في النص الأدبي يمكن أن تشير إلى اهتمامات كاتبيها ..

بمعنى أنّ هناك خيطاً يجمعها ويشدها إلى أصلٍ واحد..

وبذلك فإنّ الكاتب ليس مستقلاً عن محيطه وعن الآخرين..

ولكنه يمثل علاقة .. لا يستطيع أن يكشف عنها إلا عبر موضوعاته.

وهذا يعني أن كل الموضوعات التي ترد إلى ذهنه قد تظهر في النص الأدبي بصورة لا شعورية..!

وهنا تقترب الموضوعاتية من التحليل النفسي

لماذا نأتي بالتراث ؟

إنّ ذات المتلقي ذات متغيرة تبعا لدينامية المفاهيم التي تعيش بدورها مجمل التبدلات الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية والتاريخية... لذلك فإن الدخول إلى التراث هو فعل يتبع هذه الدينامية؛ لأنه يتجدّد بتطور أدوات التفكير عند هذه الذات، مما يؤدي لتطور فلسفة الأسئلة التي تعرّف عن نفسها.. مع كل انتقال من حال إلى أخرى ..!

فكلما تحررت الذات من القيود وأولها قيد التراث؛ أزهرت وأنتجت ثماراً معرفية تقود أجيال الناس المتلاحقة..! وهذا سبب بقاء التراث حاضراً فينا باستمرار.. لأنه هاجس مرتبط بسؤال هوية الإبداع فينا..! بحكم الضرورة لفهم المعرفة..!

فالتعامل مع التراث – من هذا المنظار - بوعي الأسئلة الجديدة المتولّدة من حاجة المعرفة؛ فيه كشف جديد للمظاهر الإبداعية العربية ولمنطقها..!

وكلما تطور وعي القارئ في تجاوز الأجوبة الجاهزة، فإنه يمنح للتراث حضوراً متجدداً، وولّاداً للمعرفة..!

حينها يمكن للتراث العربي، أن يجدّد علاقتنا به، من خلال تجديدنا لأدوات تناوله؟

لذلك قمنا بتطبيق الآلية التي كان الأقدمون قد قاموا بها على نتاجهم وأبو العلاء المعرّي ؛ من الأسياد الذين اشتغلوا على هذا المنهج!.

فجعلناه السارد في هذا العمل ، بعد أن كان يقف وراءه .. والمقصود هنا ابن القارح - في رسالة الغفران ..!

حيث وقف أبو العلاء محرّكا للأحداث، التي كانت تجري بين السارد ابن القارح ومجموعة من الشعراء واللغويين والفقهاء، الذين استدعاهم من عصور متفاوتة في الزمن..! من الذين استحقوا البعث في العالم الآخر؛ لأنهم كانوا يملكون جرأة التعبير والقول بطريقة إبداعية خلّاقة، تنتج المواقف ..! حيث استحضرهم بأطروحاتهم اللغوية، وآرائهم الجدالية إلى عالم الجنة والنار،

ودفع بهم – ضمن مواقع جديدة في متخَيّل رسالته؛ رسالة الغفران .!

ليقوموا بوظائف جديدة تتحدّد من خلال شبكة العلاقات التي افترضها من خياله فيما بينهم ..! عبر علاقتهم بالسارد ابن القارح.

فنشأت عن هذه العلاقات حوارية داخلية على مستويين :

الأول كان بين لغة النص عند المتكلم، حيث يقود الحوار بغية تدعيم وجهة نظره

والثاني بين الفكر عند المتكلم .!

فالشخصيات تحضر بكلامها ووجهة نظرها وأرائها التي تغير أحيانا وجهة نظر السارد ابن القارح. كي تنال الغفران بسب قول حكيم، أو بلاغة في التعبير. كما تفعل في نظام الحكاية

وفي النهاية كان السرد هو المنتصر.!

ملاحظة هامة :

(تبقى الأمور الفنية المتعلقة بحركة الممثل ورسم الميزانسين واختيار الديكور وشكل العرض رهن بمدى وعي المخرج الذي سيقدم هذا العمل ومدى قربه أو بعده عن المعرّي وفلسفته ..

وأرى أن تقديم هذا النص بشكله الآنف، إنما هو من القسوة ما يجعل كمية الغربة كبيرة بينه وبين المتلقي، باعتباره الطرف المرسل .. نظرا لما يحمل من كثافة في الأفكار ضمن ثناياه ..

وهنا أقترح أن يتم المزج بين أكثر من فن كالسينما والمسرح وحتى الرقص التعبيري في قالب واحد ضمن رؤية إخراجية يتم الاتفاق عليها مع المخرج. حتى لا نغتال المعرّي في قبره وعلمه).

المؤلف

(يدخل أبو العلاء المعرّي إلى الخشبة يسير معتزا بنفسه وعلائم الشيخوخة واضحة عليه.. يتوكأ على عصا.. ينظر باتجاه الجمهور نظرة الضرير)

أبو العلاء :

يقولون عنّي إنّني كنتُ

ثمرة ما اجتمع في بلاط سيف الدولة الحمداني

من سعة الخيال المبدع

الموسوم بالحكمة والفلسفة ..

وإذا كان رمز المجتمعين هناك

قد تمثل في شخصيتي المتنبي والفارابي ..

فلقد أبدعتُ إبداع المتنبي

وعشتُ حكيماً فيلسوفاً زاهداً كالفارابي ..

بل وأكثر من ذلك .. !

هكذا يقولون ..!

لهذا مهما قيل عن تفردي وتميزي ..

فلا يخرجه ذلك من حُكْم مقولة

«إن الفكر مرآة العصر، وأن الرجل ابن بيئته».

(يسير إلى يمين الخشبة حيث رفوف المكتبة.. يحسس بيده على الكتب، ويخرج كتابا من أحد الرفوف، يتأبطه.. ومن ثم يتجه إلى كرسي يجلس عليه) .

عشتُ في فترة ..

يدل منتوجها الفكري،

على أنها أوج الحضارة الإسلامية

إذ كان فيها

انتشار أهم الفرق العقدية

على تباين مناهجها[١]

وأدركتُ مع هؤلاء قمة الاختلاف حول المسائل الكلامية[٢]

أيها السادة

إن مردَّ الاختلاف

---

(١) المقصود بالفرق هي الحنابلة والمعتزلة والشيعة وأخيراً الأشاعرة.

(٢) المسائل الكلامية من مثل: قضية الأسماء ، الصفات ، الرؤية ، خلـق الأفعال. حسن الأفعال، قبح الأفعال، نظرية الصلاح والأصلح، ومسألة بعث الأجساد...!

يعود إلى نسبة اعتماد العقل في المنظومة الفكرية
لكل صاحب رأي..
ومن ثم إلى الموقف الكلامي والفلسفي
من مسألة العقل والنقل
فلو أن ياقوتاً الحموي
حين اشتهى في معجم أدبائه
أن يقف على ما دار بيني وبين داعي الدعاة بمصر
أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران
من حرب
خضت غمارها بالرسائل مضطراً
بعد أن قلت في اللزوميات :

غدوت مريض العقل والقلب فـــالقني
لتُخبر أنباء العقــول الــصحائح

ورد داعي الدعاة حينها ناصبا أفخاخه قائلاً :

أنا ذلــك المــريض رأيــاً وعقــلاً
وقد أتيتك مستشفياً فاشــفني

فإذا كان خصمي قد اقتنع بردودي

وفهم ما قصدتُ بالبيت المذكور
فلماذا اتهمني ياقوت - وأنا البريء- بالتفاصح والتشدّق..؟
وقال انقطع الخطابُ بينهما على المساكتة ..!
والتي كانت لعجزه عن استنطاقي
واستبطان داخلتي
ومعرفة سري
وهو الذي أشار إلى مجلد من الرسائل
بيني وبين داعي الدعاة
حتى اختصره اختصارا
يبدو فيه العمد وسبق الإصرار
أكثر مما تبدو فيه العفوية[1].
لذلك أعلن أمامكم أيها السادة الأفاضل
أنني بريء من كل التهم
التي طالما وُجهت إليّ على مدى ألف عام
وأن داعي الدعاة
ورسالته المليئة بالنفاق الظاهر والثعبانية

(١) نجيب سرور - لزوم ما يلزم - ج١، الفكر والشعر في منظور أبي العلاء .

حين يقول لي :

«الشيخ - أحسن الله توفيقه -

الناطقُ بلسان الفضل والأدب

الذي ترك من عداهُ صامتا

مشهود له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة

غير أن الأدب الذي هو جالينوسُ طبه

وعنده مفاتيح غيبه

ليس مما يفيده كبير فائدة في معاشه أو معاده

سوى الذكر السائر به الركبان مما هو

إذا تسامح المذكور به

علمٌ ؛ أنه له بمكانه الجمال والزينة ما دام حيا

فإذا رمت به يدُ المنون من ظهر الأرض إلى بطنها

فلا بحُسن ذكره ينتفع

ولا بقبحه يستضر».

قد رام من رسالته إزهادي في الأدب

وتحبيب الدنيا إليّ

عارضاً عليّ نوعا من الترغيب ..!

وهو يستطرد في زعزعة إيماني

بجدوى اعتزالي
وزهدي وعذاباتي
بطريقة عدمية صارخة
حين يقول
"وإذا كانت الصورة هذه
كان مستحيلاً منه -أيده الله- مع وفور عقله
أن جعل مواده كلها
منصبّة إلى أحكام اللغة العربية والتقعّر فيها
واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها
ووفر عمره على ما لا نتيجة له منها
وترك نفسه المتوقدة نارُ ذكائها
خلواً من النظر في شأن معاده.....
فإذا هو - حرسه الله - بمقتضى هذا الحكم
مرتو من عذب مشرب هذا العلم ..
ليس يبوح به
لضرب من ضروب السياسة
والدليل على كونه ناظرا لمعاده
سلوكُهُ سبيل العيش والتزهد.....

فشددتُ إليه راحلة العليل في دينه وعقله

إلى الصحيح الذي ينبئني

أنباء الأمور الصحائح

وأنا أولُ ملَّبٍ لدعوته

معترف بخبرته

وهو حقيقُ أن يسلك بي في المجاهل

ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل

وأول سؤالي عن أمر خفيف ..!

فإن استنشقتُ نسيم الشفاء،

سقتُ السؤال إلى المهم..." !!

ولكن على مَنْ .؟!

يا أيها الأفاضل

فقد كنت المدرك جيدا للفخ المنصوب لي

ومصرّاً على ألاَّ أنزلق في الطريق إليه

واضعا في حسابي

قرب داعي الدعاة من السلطة

لهذا قلت وأنا العبد الضعيف العاجز....

إني أعدّ سيدنا الرئيس الجليل

المؤيد في الدين - أطال الله بقاءه -

ممن ورث حكمة الأنبياء

وأعدّ نفسي الخاطئة من الأغبياء...

وهو بكتابه إليّ ؛

متواضع

فمَنْ أنا حتى يكتب مثلُهُ إلى مثلي؟!

مثله في ذلك مثل الثريا كتبت إلى الثرى.

وقد علم الله أن سمعي ثقيل،

وبصري عن الأبصار نقيل (غريب)...

إنّ الله جلّتْ عظمتُهُ

حكم على بالإزهاد،

فطفقت من العُدم في جهاد..

وأمّا قول الضعيف العاجز:

غدوت مريض العقل والدين فالقني

فإنما أخاطب به من هو في غمرة الجهل،

لا من هو للرياسة علمٌ وأصلٌ........!

فلما بلغ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأقوال

وبلغ ثلاثين عاماً

سأل ربه إنعاماً

ورزقه صوم الدهر

فلم يفطر في السنة ولا الشهر

إلا في العيدين

وصبر على توالى الجديدين...».

أعرف أني اُستدرِجتُ إلى الفخ المنصوب

واندفعت بطبيعتي العنيدة

أدافع عن النباتيين

وأثير قضايا كان يمكن أن تُطيح بما يقف بين كتفيّ

لكنني ختمت رسالتي

بأنه مما حثني على ترك أكل الحيوان

أنّ الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً

فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب

بقي لي ما لا يُعجبُ

فاقتصرت على فول وبُلسُن (العدس)

وما لا يعذب على الألسن..

ولست أريدُ في رزقي زيادة،

ولا أوثر لسقمي عيادة

ولكن داعي الدعاة أخطأ فهمي

ليعرض غرضه الأصلي عليّ

فيقول في إحدى رسائله إليّ

«... وقد كاتبتُ مولاي تاج الأمراء

معزّ الدولة - حرس الله عزه

ويقصد الأمير ثمال بن صالح المرداسي

أن يتقدم بإزاحة العلة،

فيما هو بلَغهُ مثله من ألذ الطعام

ومراعاته على الإدرار والدوام

ليتكشف عنه غاشية هذه الضرورة

ويجري أمرُهُ في معيشته على أحسن ما يكون من الصورة...».

ولكني رفضت ..!!

لقد عاصرتُ يا سادتي

تعدد المذاهب الفقهية واختلافاتها..

وشهدتُ قمة تألق الفلسفة في المشرق الإسلامي

حيث جاء بعد الفارابي

كلٌ من إخوان الصفا وابن سينا

وعاصرتُ ظاهرة انتشار التصوّف ..!

لهذا كلّه وللخروج من دوامة الجدال اللامنتهي

نصّبتُ عقلي إماماً

أتبعه في كل شيء

وألتزم بأحكامه في القول والسلوك والاعتقاد

مهما كلَّفني من الثمن

ومهما قيل عن تمرّدي .

سأقول لكم

كيف أرى الحياة ..؟

وهو ما تسّمونه منهجاً في أيامكم ..!

إن إمامة العقل في حياتي

تكمن في التوفيق

بين الصَّرامة في طاعته

وبين إعماله في الخيال ..

كأداة معرفية في إبداعاته ..!

ولأنّ الخيال هو قوة في النفس

لا تتقيّد بقوانين العقل وقواعده

كونها من عالم «اللامعقول»

سأقول لكم

كيف تعاملتُ مع حرية العقل إزاء سلطة النص .!

يا سادتي

يصفونني بأنّني ذو عقلٍ رزينٍ حصيفٍ..

وذكاءٍ حادٍ مفرِطٍ..

وذاكرةٍ لا نظير لها في الدنيا ..

وبأنّني ذو جرأةٍ

دفعت بي لأن أقف على شفا الممنوعات

حتى لامستُ الخطوطَ الحمر

في الدين والموروث الاجتماعي والسياسي ..!

كما يصفونني

بأنني أملك فيضاً من الأفكار

ضاقت بها مؤلفاتي

على سعتها و كثرتها

مع أنني لا أراها كذلك .!؟

ويقولون أيضاً

إنني أمتلك إرادةً حازمةً جاوزت الغرائز عندي

فتحدّتها

وقهرتها..!

وإنني أمتلك سلوكاً قد حيّر المفكرين والمحللين

ولا أعرف لماذا ..!

فأنا بسيط كالماء الذي أشرب

والهواء الذي أتنفس ..

وهبني الله نفساً كبيرةً

أودعها في جسدٍ نحيل .. !

فتاقت إلى الانعتاق من محبسها ..

وإذ بها ترتدّ رهينةً بمحابس أخرى .. !

عفواً يا سادتي

فاتني أن أقول لكم من أنا ..؟

فهناك من بين الحضور مَنْ أنا غريب عليه حتى الآن ..!

أنا عبد الله بن سليمان بن محمد

ولدتُ في معرّة النعمان جنوبي حلب..

عام ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة

الموافق لعام ثلاث وسبعين وتسعمائة للميلاد

أصبتُ بالجدري

وفقدتُ بصري

وأنا في الثالثة من عمري..

أخذتُ العلم عن أبي .. !

ثم قصدت حلب

فزرتُ مكتباتها

والتقيتُ علماءها

ومن ثمّ قصدتُ أنطاكية

ومررتُ باللاذقية..

قبل أن انتقل إلى طرابلس

طلباً للعلم.. !

ثم يممتُ شطر بغداد ..

فحضرتُ مجالس العلم والأدب فيها..!

ولما سمعتُ بمرض أمي عدتُ إلى المعرّة.. !

ولكنها ماتت قبل وصولي ..

فلزمتُ بيتي ..

لذي أصبح محجة

للعلماء وطلاب العلم ..

الذين قالوا عن جسدي النحيل

إنه كتلة من اللحم

منضبطة بإيقاع أعصابي

وغرائزي وطباعي ..!

فأنا دميم الخلقة

مجدور الوجه

قصير القامة

ناحل الجسم

واسع الجبهة

ولكنني متوهج الفكر

وافر العلم

لي يدٌ في الحديث والفقه والمذاهب

وباعٌ طويلة في اللغة والنحو والأدب،

ملمٌّ بالملل والأديان والفرق ،

واسع الاطّلاع على التاريخ والأخبار

قوي الحافظة

يقدّرون عنايتي برواية الشعر

وحرصي على الدقة والأمانة

كما يقدّرون لي التذوق الرفيع للألفاظ

وعنايتي بشرحها

والتعليق عليها

لدرجة أنهم قالوا

من الممكن الخروج بمعجم للألفاظ

من شرحي في رسالة الغفران .

وأنا الذي قلت :

ما سمعت شيئاً إلا حفظته

وما حفظت شيئاً ونسيته[١]

يصفونني بأني رقيق القلب

دقيق الشعور

سريع الانفعال

شديد الحياء

وافر الحرص على سمعتي

ولي فلسفة في الحياة

---

(١) انظر (حنا الفاخوري ص ٦٨٠).

وهي ألاّ أتناول من الطعام إلا ما أنتجت الأرض من نبات
وقد عشتُ حياتي عزباً،
انصرفت فيها إلى العلم
ونثرته على طلابي من دون مقابل.
تلكم هي بعض سجاياي وطباعي
تحكّمت بي
وبغرائزي
كما يقولون
مما جعلني مادة
يعتبرونها دسمة
في كتب علم الطباع
وأعتقد أن قدامى النقاد
شغلهم هاجس الحديث عن عقيدتي
ورأيي في الأديان و المذاهب والنبوات
والمرأة والزواج والنسل
عن أن يلجؤوا إلى نقدي
فنياً وأدبياً
شعرياً ونثرياً

أنا المكثر من فنون الشعر والنثر
فقد وضعت مصنفات كثيرة
في الشعر والنثر واللغة
بلغت نحواً من سبعين كتاباً
منها في الشعر
سقط الزند
والدرعيات التي وصفتُ فيها الدروع
واللزوميات وقد ضمنتها فلسفتي في الحياة
وكتبتُ في النثر
رسالة الغفران
ورسالة الملائكة
ومعجز أحمد وهو شرح لديوان المتنبي
وعبث الوليد وهو شرح لديوان البحتري
وذكرى حبيب وهو مختصر في غريب شعر أبي تمام[١]
وعلى كثرة الذين كتبوا عني
ما زادت كتاباتهم

---

(١) انظر: (حنا الفاخوري ٦٨٥).

عن أن ينقل الآخر ما قاله الأول
يقول صديقي الضرير
إن الأمر في نثري
كالأمر في شعري،
بل هو أشد غرابة
وأدعى للعجب،
فلا يوجد من نثري
إلا رسالة الغفران،
ورسالة الملائكة
وطائفة من صغار الرسائل
مع أن التاريخ حدّثهم
بأن ديوان رسائلي الخاصة
كان ثمانمائة كراسة
فأين ذهب سائرها؟
على أنّ لي كتباً أدبية ذهبت جملة
ولم يعرف التاريخ إلا أسماءها،
ككتاب (الصاهل والشاحج)،
وكتاب (تاج الحرّة)،

وكتاب (الفصول والغايات)،

وغيرها من الكتب،

التي لو سمح بها الزمان!!..

ما كنت أقف بينكم الآن ..!

وتتكرر المقولات

ففي رسالة الغفران

وهي رسالة جوابية

كنت قد وضعتها سنة اثنان وعشرون وأربعمائة للهجرة

رداً على رسالة

كان قد وجهّها إليّ أديب من حلب

هو ابن القارح

يسألني فيها عن مجموعة قضايا

في اللغة والأدب والدين والفلسفة

مما كان يشغل عصره

وسألني أيضاً

إن كان الله سيغفر له ذنوباً ارتكبها

عندما كان في مصر طالباً للعلم

فأجبته في رسالتي

التي جعلتها في قسمين
صوّرتُ ابن القارح في القسم الأول منها
وقد دخل الجنة
بشفاعة من إبراهيم ولد محمّد صلّى الله عليه وسلم
وأخذ يطوف فيها
يحاور اللغويين والأدباء والشعراء
ويستشهد بأشعارهم
ويعلّق عليها
ويشرح ألفاظها
ويجري وراء قضايا لغوية ونحوية كثيرة
وضعتُ فيها آرائي اللغوية والأدبية
إن شخصية ابن القارح
التي أوجدتها في رسالة الغفران
كانت من أجل إقامة السرد
فهي شخصية
منحتها شأن تدبير المجال السردي
لحكاية الجنة والنار
ومبدأ الغفران

كما جعلتها محور التقاء الأحداث والشخصيات واللغات

في حكاية العالم الآخر.

لقد حولتُ شخصية ابن القارح من شخصية مرسلة للرسالة

ومنتظرة للجواب بموجب قانون التراسل

إلى شخصية ساردة

تقوم بعملية السرد داخل النص

بينما تحولتُ أنا إلى سارد من الخلف،

أقوم بتأطير المجال السردي

وتنظيم مقاطعه وترتيبه ..!

ثم تواريتُ

تاركاً ابن القارح يقوم بسرد ما يعاينه في عالم الجنة والنار

ويحكي عن الشعراء واللغويين والفقهاء

الذين يلتقي بهم ويسألهم سبب حصولهم على الغفران.

إن ابن القارح

وإن دخل إلى مجال الرسالة الغفرانية

ذاتاً تاريخية

مشبعة بمكوناتها الواقعية

فإنه يبدأ في التخلي عن عناصره المادية

بدخوله إلى مجال الإملاء أولاً

ثم الكتابة ثانياً

فالسرد ثالثاً

ليصبح تقنية سردية

يُــــقامُ السّرد بها

لقد تواريت خلفه

كما يتوارى المؤلف في السّرد الحديث

عندكم أيها السّادة الأفاضل

خلف الكاتب في الكتابة

ونتيجة لإمتلاء رسالة الغفران

بلغات ونصوص وكلام المتكلمين

وحكاية الناجين من النار

وكذا، دخول شخصيات عديدة إلى المجال السردي

بتنوعها وتناقضاتها

فإن السارد من الخلف

- الذي هو أنا -

جعلني أقوم بتنظيم المقاطع السردية

وترتيبها ومنحها الانسجام

من خلال التذكير ..

أن ابن القارح

يعطي للسرد بعده الامتدادي

وانسجامه الداخلي

حيث يقدّم صيغة للوصف مع المخاطب

الواقف أمامه

إذ يقول في بعض الأمثلة:

أدام الله الجمال ببقائه

أدام الله تمكينه

رفع الله صوته

أيَّد الله مجده بالتأييد

زيَّن الله الآداب ببقائه..

إلى ما هنالك من هذه العبارات

فمن خلال هذا الافتتاح السردي

الذي أقدّم به ابن القارح من الخلف ..

أمنح لوظيفة السارد

طابعاً من التمجيد والإعلاء من شأنه وصوته

ولعلّه مظهر قد يشخّص مكنوناتي
في وعي التأليف التخييلي التراثي..!
أمّا ما كان على لسان ابن القارح
وهو سارد حكاية الجنة والنار
في نص رسالة الغفران.
فقد أصبح لازمة
منحت للسرد إيقاعاً موسيقياً داخلياً
وهو يلتقي مع عدد من الشعراء هم :
الأعشى
وزهير بن أبي سلمى
وعبيد بن الأبرص
والنابغتان الذبياني والجعدي
ولبيد بن أبي ربيعة
والخنساء
وحسان بن ثابت
ومن اللغويين
المبرّد
والثعلبي
والأخفش الأوسط

وسيبويه

والأصمعي

والكسائي ،

وساكنوا جنة الرجز

وأغلبهم من شعراء بني عجل، والعجاج، ورؤبة[1]

وكذا حين يطلُّ ابن القارح على جهنم

حيث يرى بعض الشعراء فيها

وهم بشار بن برد

وعمرو بن كلثوم

وامرأ القيس

الذي أنكر زيادة الواو في قوله

كــأنّ ذرى رأس المجيمــر غــدوة

من السيل والغثاء فلكة مغــزل

قائلاً لابن القارح

أبعد الله أولئك

لقد أساؤوا الرواية

---

(١) (رسالة الغفران ص ٣٧٣) .

وإذا فعلوا ذلك

فأيّ فرق يقع بين النظم والنثر

إنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض[١]

وقد عرّفتُ الشعر

على لسان ابن القارح

بأنه كلام موزون

تقبله الغريزة

على شرائط

إن زاد أو نقص

أبانه الحسّ [٢]

فجمال الشعر عندي

يتمثّل في وحدته

وتماسكه وتوازنه

وهو ما أسميته العدل أو التوسط

لأن الشعر هو تلبية لحاجة إنسانية

يتألف من عناصر

---

(١) (رسالة الغفران ص ٣١٤).

(٢) (رسالة الغفران، ص ٢٥١).

أبرزها الوزن

وفيه الانسجام والتوازن

كي لا يطغى فيه عنصر على عنصر

فيفقد جماله

ومن هنا أقول

إنني قد تأثرت

بقدامة بن جعفر[١]

حين رأى الشعر

كلاماً موزوناً مقفّى يدل على معنى[٢]

لكنني لم أقف عند ذلك

بل أضفت قيمتين اثنتين

الأولى هي أنني جعلت الشعر

لحاجة إنسانية أسميتها الغريزة

وقصدّت بها قوة الإحساس

التي تميّز الزيادة والنقصان في الشعر

---

(١) بن جعفر، قدامة، نقد الشعر - كمال مصطفي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. أولى، ١٩٤٨.

(٢) (نقد الشعر ص ١١) .

أما الثانية

فهي أنني اشترطت التوازن والانسجام في عناصره

مع أن بعض معاصريكم أيها السادة

قد اتهمني

بأنني قد أغفلتُ أمر القافية في هذا التعريف

مع أنني – حسب زعمه -

كنت مشغول الخاطر بها

وبأنواعها وعيوبها

حتى ألّفتُ فيها كتاباً مستقلاً[١]

أيها السادة

لقد كان أهل العاجلة

يتقرّبون بالشعر إلى الملوك والسادات[٢]

فجعلت ابن القارح وهو واقف بباب الجنة

يرتجي من خازنها رضوان

أن يسمح له بالدخول

لأنه في الدنيا

---

(١) (إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي ص ٣٨٧).

(٢) (رسالة الغفران ص ٢٥٢).

كان يمدحه بشعره ..!

لكنّ رضوان يسخر منه و يصرفه

إذ لا تنفع عنده شفاعة الشعر

لأن الشعر من وحي الشيطان[١]

وجعلت الخيتعور كبير الجن يقول لابن القارح في الجنة[٢]

---

(١) (المصدر السابق، ص٢٥٢) :

"وانصرفت إلى خازن آخر يقال له زفر، فعملت كلمة ووسمتها باسمه.. ولم أترك وزناً مقيداً ولا مطلقاً يجوز أن يوسم به زفر إلا وسمته به، فما نجع ولا غير، فقلت: رحمك الله، كنا في الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة فنجد عنده ما نحب وقد نظمت فيك ما لو جمع لكان ديواناً.. فقال: لا أشعر بالذي قصدت وأحسب هذا الذي تجيئني به إنما هو للجان وعلموه ولد آدم.. وإن إبليس اللعين نفثه في إقليم العرب فتعلمه نساء ورجال".

(٢) (المصدر السابق ص ٢٩١- ٢٩٢):

يسخر كبير الجن الخيتعور من تعلق الإنس بقصيدة امرئ القيس على حين ينظم الأطفال من الجن ما هو أعظم منها، وقد عرف هذا الجني الشعر وأنشده قبل خلق آدم، يقول: "وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس، وإنما كانت تخطر بهم أطيفال منا..ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم ..وقد بلغني أنكم تلهجون بقصيدة امرئ القيس" قفا نبك.." وإن شئت أمليتك ألف كلمة على هذا الوزن". ثم ينشد ذلك الجني ابن القارح شيئاً من شعره ومنه قصيدة سينية مطولة على البحر السريع مطلعها:

مكة أقوت من بني الدردبيس　　　فما لجني بها من حسيس

وهو يفخر بشعر الجن ويعلو به

ويسخر من شعر الإنس

الذين لا يعرفون سوى خمسة عشر وزناً

على حين يعرفون هم

آلافاً من الأوزان والبحور

مكة أقوت مــن بنـــي الـــدردبيس

فما لجني بها من حـــسيـــس [١]

لقد قدّرتُ الشعر والشعراء

بل جعلت كثيراً من شعراء الجاهلية

يدخلون الجنة

كالحطيئة وذلك لصدقه في قوله

أرى لـــي وجهــاً شـــوه الله خلقـــه

فقبح من وجـــه وقـــبح حاملـــه [٢]

وجعلت الأحاديث تدور حولهم

خلاف أفلاطون الذي حرّم على الشعراء دخول جمهوريته

(١) (المصدر السابق ص ٢٩٨).

(٢) (المصدر السابق ص ٣٠٧).

لأنهم يثيرون المشاعر والعواطف

فيجعلون الناس ضعفاء

ولم يستثنِ إلا شعراء الحماسة والبطولة..!

ولقد عنيتُ باللغة في رسالتي

ووقفتُ طويلاً

عند بعض القضايا اللغوية والإعرابية

من ذلك

رواية فعل نضت بتضعيف الضاد

في بيت امرئ القيس:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها

لدى الستر إلا لبسة المتفضل

حيث قلت

منهم من يشدد الضاد

ومنهم من ينشد بالتخفيف

والوجهان من قولك

نضوت الثوب

إلا أنك إذا شددت الضاد

أشبه الفعل من النضيض

يقال هذه نضيضة من المطر

أي قليل

والتخفيف أحبّ إليّ

وإنما حملهم على التشديد

كراهة الزحاف وليس بمكروه [١]

ووقفت على إعراب لا سيما

في قول امرئ القيس

ولاسيما يوم بدارة جلجل

فقلت يجوز النصب والخفض والرفع

فأما النصب فعلى ما يجب للمفعول من الظروف

وأما الرفع فعلى أن تجعل ما كافة

وإذا خفض يوم فما من الزيادات [٢]

أما في القسم الثاني من الرسالة

فقد أجبت عن أسئلة ابن القارح

---

(١) (المصدر السابق ٣١٥).

(٢) (المصدر السابق ص٣١٧).

وتحدّثت عن أمور كثيرة

تتصل بالفرق الدينية والفلسفة والتاريخ..

وهي أشبه من اليوم بالبارحة

وأترك لكم أن تفكروا

وتفسروا

هذه الفلسفة الشعرية

وهي جزء

من ألف جزء من فلسفتي العلائية

التي شغلت الفلاسفة

والنقاد

والمفكرين.

لقد قلت

الفكر حبل متى يمسك على طــرف

منه يــنط بالثريــا ذلــك الطـــــرف

أيّها السادة الأفاضل

اسمحوا لي أن أقول لكم بتواضعٍ

إنني صاحب منهج الشك

لا ديكارت ولا طه حسين

ولم أقصد إلى التشكيك في الشعر الجاهلي وحده

ولا في التراث العربي عامة

وإنما قصدت إلى التشكيك في التراث الإنساني على الإطلاق..

وفي كل شيء وبغير استثناء!

ولا يمكن فهم منهجي في الشك

بدون فهم طبيعة تكويني

وطبيعة تركيبتي النفسية

وتركيبتي الفكرية..

وأعني "فلسفتي"

لأن منهج الشك لديّ نابع من موقفي الفلسفي

المستند على رؤيتي للفكر من جهة

وللوجودين الطبيعي والاجتماعي من جهة ثانية !

وذلك بطريقة طبيعية وتلقائية ومنطقية إلى أبعد الحدود!

فما هو موقفي الفلسفي؟!

وما هو مذهبي؟

قلت في لزومياتي :

إذا سألوا عن مــذهبي فهــو بــين

وهل أنا إلا مثل غيــري أبلـــه؟

فهل صحيح أنني أبله؟

وأنا الذي قلت :

عش بخيلاً كأهــل عــصرك هــذا

وتباله فان دهرك أبلـــــــه

أيها السادة الأفاضل

لست أبلهاً وإنما أتباله،

وذلك على طريقتي في التمويه والمناورة لأمر في نفسي!

فقد قلت :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشــيا

تجاهلت حتى ظُن أني جاهـــل!

كل ذلك لأن لي مذهبي الخاص..؟!

فمن وجهة نظري المعاصرة

التي استمدها من رؤيتكم النقدية

أقول

كان فلاسفة العصور الوسطى في أوروبا يؤمنون بمقولة:

«آمن كي تعقل»

فهل تظنون أنني أقول عكس هذا القول:

«اعقل كي تؤمن»

فإذا كان ديكارت يقول:

«أنا أفكر إذاً فأنا موجود»

فهل تظنون أنني أقول:

«أنا موجود إذاً فأنا أفكر»

وأنا الذي قلت :

كذب الظّن لا إمــام ســوى العقــل

مشيراً فــي صــبحه والمــساء

لقد تعاملت مع حرية العقل إزاء سلطة النص،

لأن الوحي أمر بإعمال العقل

وفضّل أولي الألباب

وهل لسلطة العقل حدود

أمام قيد النص..؟

إن وعيّ بما أحاط بي من ظروف

سياسية واجتماعية ودينية وأخلاقية

وما عشته كشخص فقد علماً

بفقدانه حساً

فرمتُ تعويضه بعلوم

من خلال باقي أدواتي المعرفية

لأن الأدوات خادمة للفكر والعقل

فالعقل إمام للإنسان

لأنه إمام لمختلف أدوات ومصادر المعرفة عنده

بما في ذلك النص بصفته خبر

يتلقّاه العقل عن طريق الحس

ويتأكّد من صحته

وله التكذيب أو التصديق..!

ولأن النصوص الدينية

يشوبها التحريف والتعارض والفهم الخاطئ

أوكلتُ إلى العقل

مهمة اتخاذ الحكم المناسب

واختيار ما لا يعارض الفكر..!

وفي ذلك قلت :

والعقل يعجب للشروع تمجّس

وتحنف وتهود وتنصر

فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة

وانظر بقلب مفكر متبصر

وقلت أيضاً:

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها

شأناً ولكن فيها ضعف إسناد

فشاور العقل واترك غيره هدراً

فالعقل خير مشير ضمّه النادي

وبسبب الاختلاف في العقيدة والسياسة

قلت

يخبرونـــك عـــن ربّ العـــلا كـــذباً

ومـــا درى بـــشؤون الله إنـــسان

ما كان في هذه الـــدنيا أخـــو رشـــد

ولا يكون ولا في الدهر إحـــسان

وإنمـــا يتقـــضّى الملـــك مـــن غيـــر

كما تقضّت بنـــو نـــصر وغـــسان

بنـــو أميـــة بالـــشامين ديـــن لهـــم

والهاشـــميون والـــتهم خراســـان

ولـــست آمـــن أن يـــدعى إمـــامكم

من عالة الزنج أو رتبته ميـــسان

والرأي أن تبعـــث الأنـــضاء واحـــد

إلى دمشق فبئس الـــدار بيـــسان

إن تفرد العقل بالإمامة عندي

دون أي منازع

بما في ذلك النص الذي يعارض العقل ..!

أما ما لا يعارض العقل

فسلطته كسلطة العقل وأكثر..!

أو ليس النص

هو القائل أكثر من مرة

بأنّ الظنّ لا يغني من الحقِّ شيئاً ....!

قال الله تعالى :

(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، إن الظّن لا يغني من الحقَّ شيئاً)[١]

ولأن إمامة العقل عندي

هي قطع الظّن بيقين العقل ورحمته

قلت بيتي المشهور كما تعرفون

والذي بنيتم جميعاً عليه أصول فلسفتي :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهـداً

وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي

---

(١) في سورة يونس الآية ٣٦... وكذا سورة النجم، الآية ٢٨.

لقد صار العقل عندي مضرباً للمثل

فكم تمنيتُ وجوده لدى السحاب

ليحسن توزيع الأمطار على النافع ومن يستحقها فقط [١]

ولو أن السحاب همى بعقل

لما أروى مع النخيل القتادا

ولو أعطى على قدر المعالي

سقى الهضبات واجتنب الوهادا

لقد كان العقل

نبيّ المشرع

وإمامي الهادي

لأنه الشارح المؤول والمنفذ لما جاء به النبي

ولما كان العقل مجرداً عن الحسّ

وإن كانت معارفه لا تخلو منه

فهو علم ..!!

ولما كان أداة معرفية وعلماً

---

(١) سقط الزند، ج ٢، ص ٨٠٤ – ٨٠٥.

كان هو المذهب الذي أستقي منه أحكامي .!!

ومعلوم أن العقل لدى الفلاسفة

هو العلم والعالم والمعلوم

وهو من حيث كونه مصدراً للمعرفة

فهو مذهبي

لهذا قلتُ :

وهذا لأهل النطق شرعي ومذهبي

فمن لم يطعني عقّ أمـــر إمامـــه

إن ربطي بين الإمامة والنبوة،

ولو بمدلولها ..

الذي يعطي ظاهر العبارة

من أنّ العقل هو الإمام

وهو النبي

عندما تتعقد المسائل

ويختلف الناس

بمللهم ومذاهبهم

ولهذا كما أخبرتكم قبل قليل

اعتبرت العقل نبياً[١]

حين قلت :

أيهــا الغــر إذا خصــصت بعقــل

فاســـألنه فكــل عقـــل نبـــي

أيّها السادة

سيأتي يوم يبحث العلماء

- كأمثال حضراتكم -

فيه

على مقاربة

بين المنحى الفلسفي للعقل

والمنحى العقدي الفلسفي لمفهوم العقل

ولأنني أقرُّ بإمامة العقل

أقولُ لكم اعتبروا أنني

من أدخل مفهوم الإمامة

---

(١) اللزوميات، ج٢، ص٤٣٩.

مع أن بعض المذاهب

قد أعطت الإمامة بعداً فلسفياً

حين اعتبرت

أن العقل رسول الله إلى البشر[١]

عندما قالت إن الرسل صلوات الله عليهم

إنما أتت لتأمرنا بالمحمودات

وتنهانا عن المذمومات

ووجدنا العقل أيضاً يأمرنا بالمحمود الحسن

وينهانا عن المذموم القبيح

وإن الرسل إنما تؤدي إلينا ما تعرفه عقولنا

فنقبل يا سادتي

ما أتت به هذه الرسل لأن عقولنا قد أدركته

إذا فالعقل هو

أول رسول من الصانع إلينا

نحن المصنوعين،

---

(١) إثبات التنبؤات تحقيق وتقديم عارف تامر – المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٩٦ ص ٤٩.

ليأمرنا وينهانا

والرسول الجسماني هو آخر رسول إلينا...

لقد رسمت في لزوم ما لا يلزم

صورة العصر

كاشفاً تناقضاته

وموحداً أحياناً بين المتناقضات

ممهّدا بذلك نفس وعقل القارئ للتلقي والفهم

فقلت :

ومـــا نـــوبُ الأيـــام إلا كتائـــب

تبُـــث ســـرايا أو جيـــوش تُعبـــأ

وهنا طرحت المشكلة

التي سأتفرّغ لها وأنا في محابسي بالمعرة

لأورّثها لأنصاري ومريديّ

في حياتي وبعد مماتي

وقد ضربتُ لانجازها موعداً مقداره ألف عام

فقلت:

يـــرتجي النــــاسُ أن يقـــوم
ناطـق في الكتيبـة الخرســـــاء

كذب الظّـن لا إمــام سوى العقـل
مـشـيراًفــيصُبحــهولمــسـاء

فإذا مــا أطعتــه جلــب الـــرحمة
عـــند المــسير والإرســـاء

إنمــا هـــذه المذاهــب أسـباب
لجذب الدنيــا إلــى الــرؤسـاء

غــرضُ القــوم مُتعــة لا يرقــون
لــدمع الــشيمــاء والخــنـساء

كالذي قام يجمــعُ الــزنج بالبــصــ
ـــرة والقرمطــيّ بالإحــساء

فالكتيبة الخرساء تلك..

هي حزبي

في مواجهة

الأحزاب والحركات

والمذاهب والملل

والنحل والفرق

والطوائف،

كحركة الزنج أو كالقرامطة

باعتبارها جميعا تجمعات يهودية

أو تسلل إليها اليهود

فحرفوها عن طريقها ..

ثم لأنها لا تفعل أكثر من أن تجلب الدنيا إلى الرؤساء

الذين تتناقض دائما شعاراتهم مع أعمالهم

نـــــوب الأيـــــام وســــــرايـاه

المنبثـــة وجيوشـــه المعبـــأة

ولكنني إذ أفشي سر الكتيبة الخرساء

إنما أوحي بأن هذه الكتيبة

W سابقة عليّ أيضا

فالكتيبة كانت من قبل تتبع الظن والوهم

بأنها تنتظر ظهور الإمام الناطق.

أوالمستبد العادل

أو المخلص

لذلك أقول:

ليست القضية قضية انتظار واهم حالم لمخلّص منشود

وإنما هي بثٌّ السرايا

وتعبئة الجيوش

وإتباع العقل لا الظن في التدبير

مادامت الحركات المعادية

حركات منظّمة

وسرّية وباطنية.

فالمكر لا يفلّــه إلا المكر،

والذكاء إلا الذكاء،

والخبث إلا الخبث،

والسّرية إلا السّرية،

والتنظيم إلا التنظيم.

وإذا كان ميعاد الحركات المعادية كلها بعد ألف عام على أرض الميعاد،

فلتكن المواجهة بعد ألف عام على أرض الميعاد

إذن فلنعبئ لهذه المواجهة قوانا،

كتائب وسرايا وجيوشاً خرسا

فمادام صدق الوعد فكيف لا يصدق الوعيد..!

لقد نذرتُ نفسي

لمهمة المسير والإرساء،

ورسمت لكتيبتي الخرساء

خطتها

وحددت لها الواجبات

وطريقة التجنيد

ودرجات ومستويات

ومراتب الأعضاء.

واستخدمت في ذلك وعلى طول اللزوميات

الضمائر الثلاثة

المتكلم والمخاطب والغائب،

وتركت للقادم من بعدي أن يكتشف

من الذي يتكلم؟

ولمن؟

وعمّن؟

وعّماذا؟

حاولت جهدي أن أطهّر الكتيبة

من الأوثان الوهمية، العقلية، النفسية، الاجتماعية، السياسية والوراثية.

كلفت أعضاء الكتيبة أن يكرّروا ليفهموا

وكشفت لهم عن خطط وحيل جميع الحركات المعادية

التي هي في واقعها كما قلت في أكثر من مكان

حركات ماسونية يهودية أصلاً:

لهم حيل في حربهم مـــا اهتـــدت

جديس ولا ساست بها الملك جُرهم

ولم أكُ في الوقت نفسه

لأستطيع أن أتخلّى عن رسالتي ودوري ومهمتي

وإلا..

لانتحرت كما حاولت فعلاً مرة.

وأنا القائل

من باعني بحياتي ميتـــة ســـرحا

بايعتـــــه وأهـــان الله من ندمـــــا

كنت حريصاً على

تجنيب مسيرة الكتيبة الخرساء

جميع احتمالات الخطأ والفشل

والانحراف والشغب.

والمفاجآت على طول زحفها

منذ البداية حتى يوم المواجهة المنشود.

لقد كنت على طول اللزوميات

أشكك في كل شيء

بلا استثناء

مما قاله أو قصّه

أو نقله الرواة

فاضحاً جميع الإسرائيليات

والأصابع الإسرائيلية

التي مسخت

وشوهت

وحرّفت

وأبدلت كل شيء

وعبثت بالأديان

والمذاهب والأحزاب..

فقلت :

أعللت علـــة قـــال وهـــي قديمـــة

أعيـــا الأطبـــة كلهـــم إبراؤهـــا

وقلت :

فهـــمُ النـــاس كـــالجهول ومـــــا

يظفـــــر إلا بالحــــسرة الفُهمـــاء

لذلك وضعت حاشية على السيرة الذاتية

وكررتها في اللزوميات

فحكيت أحياناً عن تجاربي

وعن حياتي الخاصة

لأصحح ما يُقال

أو ما سوف يُقال عني من افتراءات في حياتي وبعد مماتي..!

وسأكلّف القارئ غير الملول وغير المتعجّل
أن يكرّر قراءته
ليفهم عني.
حتى لو وصل إلى الملل.!
بعد أن أوشكتُ
أن أنحدر إلى اليأس من الملل والتكرار
لكني عدت فصبرت
وتماسكت
لأستأنف
صريحاً تارةً
ومتخفياً تارات،
طالباً من أعضاء حزبي
أن ينتشروا في العالم
حاملين رسالتي إلى شتى أرجاء الأرض
كي يعدوا من رباط الخيل عُـــدّة
للمواجهة الحتمية القادمة:
فما حبسَ النفسَ المسيحُ تعبــــداً
ولكن مشى في الأرض مشية ســائح

ففي رسالة الغفران

كنت أشرت في أكثر من مكان إلى هذه الكتيبة

وإلى حيل وخطط الأعداء

وخاصة على لسان الجن في لقائهم مع ابن القارح

وقلت صراحة لابن القارح

«ودنانيره بإذن الله مقدسات...

وإن كانت زائدة على الثمانين

فقد أوفت على عدة أصحاب موسى الذين جاء فيهم

[واختار مُوسى قومهُ سبعين رجُلا لميقاتنا]

وعلى عدة الاستغفار في قوله تعالى:

[إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر اللهُ لهُم]

وعلى عدة أذرع في السلسلة في قوله تعالى

[ثُم في سلسلة ذرعُها سبعُون ذراعا فاسلُكُوهُ]».

وإن عددي الثمانين والسبعين

عددان رمزيان

ولا يعنيان العدد الحقيقي

وهذا ما قلته بعد ذلك مباشرة

ولكن المهم أن هذه الدنانير

هي الكتيبة ..!

وتتخذ من مصر بالذات مركزاً لها

وهذا ما يوحي به قولي قبل ذلك مباشرة :

«وسرتني فيئةُ الدنانير إليه فتلك أعوان

تشتبه منها الألوانُ،

ولها على الناس حقوق،

تبر إن خيف عقوق...»

أما قصتي مع مصر بالذات

فتحتاج وحدها إلى بحث طويل

ما بين سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران

فلي عنها كلام أكثر من أن يقع في حصر

ولكن حسبي هنا أنني قلت:

إن نال من مــصر قــضاء نـــازل

فمصير هذا الخلق شـــر مــصير

وقولي:

تتوى الملوك ومصر في تغيـــرهم

مصر على العهد والإحساء إحساء

وقولي:

ما خــص مــصراً وبــأ وحــدها

بل كــائن فــي كــل أرض وبــأ

فأنا قائد الكتيبة الخرساء

وصاحب الدعوة

والفيلسوف والمنظّم والمنظّر

والمخطط لحركة لم يكن لها منذ ألف عام

إلا أن تلتزم التخفي والسرية.

فأين هي هذه الكتيبة الآن؟

وهل صُفيّتْ على مدى ألف عام من الخيانات

أم مازالت تتحرك تحت الأرض؟

أما أنا فمجبر بحكم عماي وعجزي

على لزوم محابسي :

أراني في الثلاثة مــن سُجونـــي

فلا تســأل عــن الخبــر النبيــث

لفقدي ناظري ولــزوم بيتـــي

وكون النفس في الجسد الخبيــث

أيها السادة

كنت دائماً أقول

لو أنكم التفتّم إليّ منذ زمن طويل

واكتشفتم سري

لما أخذتم على غرة ألوف المرات،

ولو أنكم صُنتم تراثنا وطهّرتموه من الإسرائيليات المدسوسة

لعرفتم أعداءكم من أصدقائكم

فضلاً عن معرفتكم لأنفسكم

ولواجهتم خطط الأعداء

بنفس المكر والخبث والذكاء

ونمتم بعيون مفتوحة يقظة.

ولكن دائما يفوت الأوان

فالعقل والفكر البشري لم يلقيا

مثلما لقي العقل والفكر العربي

من صنوف الاغتيال

بكل أنواعه ..!

وإذا ما بقينا على هذه الحال

سيظل الشلل الفكري

ينخر في عظمنا

حتى نفقد الثقة بأنفسنا

بل ونفقد حتى مجرد غريزة الدفاع الشرعي عن النفس

أيها السادة الأفاضل

سيأتي يوم يبحث العلماء فيه

كأمثال حضراتكم

ما يعتبرون أنني أعطيت العقل بعداً عقدياً.

من خلال ما أدرجته

ضمن ذوي النزعة الإنسانية

في الفكر والأدب.

وعلى هذا أعجبني قول قيل من بعدي بمئات السنين

يشرح هذين البيتين

يــرتجي الناسُ أن يقــوم إمـــــام

ناطــق في الكتيبــــة الخرســـاء

كذب الظــّن لا إمام سوى العقــل

مشــيراً في صُبحــه والمـــســاء

واسم الشارح أحمد أمين

إذ يقول:

العقل هو الهادي الوحيد

لمعرفة الخير والشر

والحق والباطل

فلا حاجة إلى انتظار إمام معصوم

يرشد الناس إلى ما يعمل وما يترك،

فالعقل كفيل ببيان ذلك»[١]

وهذا لا يعني أنني مع ما ذهب إليه بالضرورة

لأنني أرى العقل إماماً للإنسان .!

هذا لأن العقل إمام لمختلف أدوات ومصادر المعرفة عنده

كما قلت من قبل .!

لكنني قد أتفق معه

ومع كثيرين غيره

اعتبروا أن نصوصي مفخخة ومفتوحة على إمكانات التأويل

وهذا ما جعل البعض يقول

---

(١) أحمد أمين - سلطان العقل عند أبي العلاء - ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - صادر دار بيروت لبنان- ط٢ -١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، ص ٤٨.

إذا اعترفنا جميعاً

بنبوة أبي الطيب في الشعر

بما أبدع

فلابد من الإقرار

بإمامتي في الشعر

إذا كانت الإمامة

تعني استمرارية النبوة والمنزلة

فللإمام شرحُ وتجسيدُ وتجديدُ العقيدةِ

التي جاء بها النبي

ومن قولي ما يؤيد هذا المذهب[1]

سننت لأرباب القــريض امتداحَــهُ

كما سنَّ إِبــراهيمُ حــجَّ مَقامِــهِ

كانوا يسألون

عن أوجه شتى

من علاقة الخيال بالعقل

---

(١) سقط الزند ج ٢ص ٥١٧ – ص ٥١٨.

في منتوجيَ الفكريّ

وهو ما كانوا يسمونه النص العلائي..!

كيف يمكن إيجاد التوفيق والانسجام

بين صرامة العقل

وحرية الخيال من قيد العقل

كنت في خطابي الشعري والنثري

أقول حِكماً استندتُ إلى العقل في مدلولها

أما هم فيقولون إن لديّ

القدرة الفائقة على تفكيك الكلمات

وإدراك كثرة معانيها

وإلى الخيال في جمال نسجها

إذ لعب الخيال دور الفنان في عمل

يجمع بين الجمال والحكمة

ووضعوني في ميزان المقارنة مع الفارابي

فقالوا إن الفارابي

لا يُبلغُ الإنسانَ السعادة واليقين إلا بالفلسفة

ولن يتأتى له ذلك

إلا بعد أن يدرك الجمال

ويصير الشيء الفني منطبعاً في النفس

مع أن الفارابي

يقول معرّفاً الفلسفة التي تحقق السعادة..

أو السعادة التي لا تتحقق إلا بالفلسفة

«إن الصنائع صنفان

صنف مقصوده تحصيل الجميل

وصنف مقصوده تحصيل النافع

والصناعة التي مقصودها تحصيل الجميل فقط

هي التي تسمى الفلسفة

وتسمى الحكمة على الإطلاق ..!

ولما كانت السعادة

إنما ننالها متى كانت لنا الأشياء الجميلة فنية

وكانت الأشياء الجميلة

إنما تصير لنا فنية بصناعة الفلسفة

فلزم ضرورة أن تكون الفلسفة هي التي ننال بها السعادة[1]

وهذا ما تسمونه الجمع الواضح

---

(١) الفارابي – التنبيه على سبيل السعادة ، حيدر آباد – الدكن ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨م – ص ٦.

بين المعرفة والقيم

بجانبيها الجمالي والأخلاقي

وتقولون إن هذا الجمع طبع خطابي أيضاً

لا من حيث نيل السعادة في الدنيا،

لأن موقفي من الدنيا ميئوس منه أو يكاد[1]

كن من حيث أهلية العقل في الحكم على الأفعال

حسنها وقبحها،

خيرها وشرها،

ومن حيث الحقيقة الممكن إدراكها بالعقل ..!

لا بالحسّ وسائر الأدوات التي لا تنتج إلا ظنّاً،

والحقيقة البعيدة عن الظن

هي الكفيلة بحصول الاطمئنان للنفس

وتلكم هي السعادة ..!

وهنا أقول

---

(١) شروح سقط الزند، تحقيق جماعي بإشراف طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م. ج٣، ص ١٠٤١.

إن أوجه العلاقة بين سعة الخيال وانضباط العقل في فلسفتي
يقوم على استلهام عقلي للحرية من خياله
فحدث لدي ..
تداخل بين الأداتين المعرفيتين
وهو تداخل ليس بالغريب عن الفكر الفلسفي
خاصة
لدى من يعتقد أن العقل الإنساني
يستمد مدركاته من قوى النفس المختلفة ..
والخيال هو واحد من أبرز قوى النفس
لأنه الواسطة بين المدركَات الحسية وعالم المعاني المجردة
حتى أن ابن العربي(١)
عدّه عالماً مطلقاً لا محدوداً
يجمع بين الوجود والعدم
فسمّاه البرزخ
وهو الخط الوهمي الواصل والفاصل في الآن نفسه
بين المحسوس والمجرد...!
أما أنا فاعتبرته

---

(١) ابن عربي والخيال.

إجادة إعمال العقل للخيال
الخيال المفتوح على المطلق
يختار العقل منه ما يشاء
دون أن يفقده صوابه في حسن القيادة
لأن الخيال خزانة..!
يا سادتي ..
كنت أسمو وأتعالى عن الواقع
مع التزامي بقضايا هذا الواقع وهمومه في الآن نفسه
فقد جمعتُ بين السمو والالتزام
ولم يجرفني سيل الأمر الواقع
لِما أرى فيه من فساد وانحراف
ولم أكُ – حسب مصطلحاتكم يا سادتي - طوباوياً..!
فقد توسطتُ
سمات شخصيتيّ المتنبي والفارابي بالفعل..!
إضافة إلى سعة الخيال
وصرامة العقل في فلسفتي
كنتُ ذا ثراءٍ لغويّ متميز..
فمعجمي اللغوي يعجّ بالكلمات

وعقلي يُتْقِنُ الربط بين الكلمات والأشياء

باستعمال خياله

فلم يكن عندي للشيء الواحد

اسم واحد يعبّر عنه

والكلمة الواحدة طيّعة لي

مستعدة أن تعبّر عن أسماء

لا يَعرف لها حدّاً ؛ إلايّ

أو من في هامتي

قد يدفع إلى القول

بأن أسلوبي هنا

نموذج - للتفكيكية - في التراث الإسلامي

كما يحب أن يسميها علماء هذه الأيام

وأنتم من رؤوسهم أيها السادة ..!

هناك من علمائكم من تحدث عن هذا الأمر

بتحليل يناسب أيامكم

يقول عميد أدبكم العربي طه حسين

في تجديد ذكراي..

إن المسلمين لم يعهدوا بينهم في قديمهم وحديثهم فيلسوفاً مثلي

قد جمع بين الفلسفة العلمية والعملية

ثم بينهما وبين العلم واللغة

نعتني بالفيلسوف الفذ الذي التزم ما لا يلزم عند المسلمين

في سيرتي ولفظي

تحدث عن تحريمي الحيوان والتزامي النبات

وأني أبيت الزواج والنسل

وأردت اعتزال الناس.

وقال إن لي شدة غريبة في رفض الخمر.

معتبراً أنني حرّمتها من جهات ثلاث:

العقل والصحة والدين.

ألّفتُ في ذمها كتاباً خاصاً أسميته (حماسة الروح).

وأنني الفيلسوف الفذ الذي أنكر النبوات

واعترف بالإله وعرض بالتكليف

وبأنني بقيتُ مع ذلك سالماً لم يُصِبْنِ أذى في نفسي إلى أن مِتُ ..!

وقد حصر علة هذه السلامة في ثلاثة أشياء :

الأول: مهارتي في الاحتياط وإخفاء الرأي.
الثاني: أن أكثر أيامي كانت أيام اضطراب سياسي بين حلب ومصر والروم،
فلم يفرُغ لي الحكام.
والثالث: أن الدولة التي غلبت على حلب أيام فلسفتي،
هي دولة بني مرداس، وكانت دولة بدوية خالصة،
لا تحفل بمثل هذه الموضوعات ولا تفكر فيها،
وإنما كلُّ همّها القهرُ والسلطان .
ويقول
إنّي كنتُ أدفعُ الحكّام عني
بكتبٍ في اللغة أعنونها بأسمائهم،
فأتخذ لي بذلك منهم أصدقاء ..!
ولم يقتصر هذا على حكام المرداسية،
بل يقول إنني فعلته مع الدزبري.
فألفت له كتاباً خاصاً
وهو نائب الفاطميين الذين أكرههم – حسب زعمه –
لذلك سلمت من الأذاة الدينية
في القرن الحادي عشر للميلاد ..

مع أن أمثالي من فلاسفة الفرنجة

كانوا يُقتلون ويُعذبون في القرن السادس عشر في أوروبا"!

ومع ذلك يقول عني

بأنيّ الإمام الضرير

شاعر الفلاسفة

وفيلسوف الشعراء

وأنني وحشي الغريزة أنسي الولادة"[١]

رهين المحبسين

مع أني رهين الثلاثة من سجوني

لقد برر طه حسين

براعتي العقلية والخيالية المجسّدة في ثراء لغتي

بأنها نتيجة ما كنت أعانيه في سجني

من وقت فراغ رهيب

دفعني إلى كثرة التأمل وطول التفكير

فجاءت براعتي في معرفة أسماء عديدة للشيء الواحد

---

(١) من الرسالة التي وجهها أبو العلاء لخاله أبي القاسم – حسب طه حسين في تجديد ذكرى أبو العلاء وهي أطروحة الدكتوراه عام ١٩١٤.

ومعاني كثيرة للاسم الواحد

تسلية وترفيهاً عن النفس التي ضجرت الوحدة والسجن

لمدة زمنية طويلة [1]

ويسأل صديقي الضرير

هل سجني إرادي أم لاإرادي؟

يبدو أنه ومع كبير الشبه معي

كأنه لم يستوعب

كيف استطعت أن أحبس نفسي بهذا الشكل

وكيف زهدت في الدنيا بهذا الشكل،

حتى رماني في زهدي بأنه زهد المضطر

أو زهد من لم يتوفر لديه الحظ في الدنيا وملذاتها

بل لقد كنت حسب ما قال

عاجزاً عن تحقيق رغباتي

فاصطنعت الزهد ..!

إذ يقول عني حرفياً

« **فالذين يظنون به الزهد مخطئون**

فليس هو زاهداً

---

(١) طه حسين؛ مع أبي العلاء في سجنه دار المعارف بمصر ط ١١ – ١٩٧٦ ص ١٠٥.

ولكنه رجل عاجز عن تحقيق آماله

قد راض هذه الآمال فامتنعت عليه

ولم تذعن له

وأدركه اليأس من انقيادها

فخلّى بينها وبين الشموس

وأعرض عن لذاتّه

لا رغبة عنها بل قصوراً وعجزاً ..!

فهي التي أفلتت منه

ولم يستطع أن يلحق بها

فآثر القعود على سعي لا غناء فيه

فهو إذن ساخط على الدنيا لأنها أعجزته

لا لأنه زهد فيها» (١)

وعندما يتحدث صاحبنا عن نموذج من النماذج الشعرية عندي حيث أقول

يدل على فضل الممات وكونه

إراحة جسم أن مسلكه صعب

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

ألم تر أن المجد تلقاك دونـــه

شدائد من أمثالها وجب الرعب ؟

فيقول بأن في معناها:

«إنتاج العقل الفلسفي

وإنتاج الخيال الشعري،

وائتلافاً غريباً لا يخلو من تكلّف

بين هذين النوعين من الإنتاج ..!

ولكنه تكلف لا يحفظ ولا يغيظ..

فأما العقل الفلسفي

فقد أنتج لي بعد التفكير والروية

أن الحياة عناء الأجسام... [١]

والموت مريح للأجسام من احتمال الأثقال» [٢]

وعند الحديث عن الموت باعتباره هدفاً للراحة

أستعمل الخيال ..

---

(١) الأبيات التي يشرحها طه حسين ويجعلها نموذجا لاستعمال المعرّي للعقل والخيال معا هي قول المعرّي:

يدل على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب

ألم تر أن المجد تلقاك دونـــه شدائد من أمثالها وجب الرعب؟

(٢) طه حسين؛ مع أبي العلاء في سجنه دار المعارف بمصر ط ١١ – ١٩٧٦، ص ٩٤.

- وهذا الكلام في نظر طه حسين -

لإعانة الدليل العقلي بضرب المثال

واستعماله تمهيداً للبرهان العقلي وتالياً له ..!

فقد أمليت حكايتي عن الجنة والنار في رسالة الغفران ،

كما أدركتها لحظة اشتهاء تخيلها.

عندما تجاوزت العالم الدنيوي،

بكلِّ تناقضاته وتوتراته وصراعاته،

وبنيت احتمالاً لحياة لا يكتمل سردها

إلا عندما يتحقق المصير في العالم الآخر[١]

وباعتبار رسالة الغفران

حكاية عن العالم الآخر،

فقد أحضرت ابن القارح من البداية

سبباً لأدخل في

حكاية الجنة والنار

وألمحت على لسان ابن القارح كثيراً

---

(١) د. زهور كرام ناقدة وأديبة من المغرب الخطاب السردي عند المعرّي - رسالة الغفران نموذجا – بحث أكاديمي ألقي في المهرجان العاشر لأبي العلاء المعرّي – معرة النعمان ٢٠٠٦.

إلى المدسوس والمنحول

إذ أورد الحكاية التالية عن أبي الفرج الزهرجي فقال:

«لقيتُ أبا الفرج الزهرجي بآمد ومعه خزانة كُتبه فعرضها عليّ فقلتُ:

كتُبك هذه يهودية،

قد برئت من الشريعة الحنيفية،

فأظهر من ذلك إعظاماً وإنكاراً،

فقلت له: أنت على المُجرب،

ومثلي لا يهرفُ بما لا يعرف،

فقرأ هو وولدُه وقال: صغر الخُبرُ (الاختبار)

وكتب إليّ رسالة يُقرظُني فيها بطبع له كريم،

وخُلُق غير ذميم».

إذ قدّم ثبتاً طويلاً

بكتب ضاعت أو سرقت أو خبئت.

يا سادتي

وإن افتراض رسالتي

جواب على ابن القارح

إن هو إلا حافز

خرقتُ موضوعه في البداية،
ولم أستعده إلا في أواخرها
بعد أن تحولت الرسالة
إلى حكاية ..!
كانت سبباً ليس إلا
لإقامة السرد ..!
لأن السرد يتأسس على مبدأ الحافز
الذي يفتح الطريق أمام الحكاية
ثم يتوارى إلى الخلف
لتمضي الحياة
في أبعادها المتخيلة ..
الأسطورية والمعرفية والثقافية...!
لقد أدخلت السامع في حكاية الجنة والنار
وأنسيته جواب سؤال ابن القارح
لأن السرد بحاجة إلى نسيان الحافز
لانتعاش الذاكرة الحاكية
فاسحاً المجال لامتداد الحكاية

صنعة وتخييلاً.
ولهذا فما بين حاضر السرد
وزمن الحكاية،
يتشكل الوعي
فتصير الحكاية المسرودة
وفق هذا المنطق
نهراً به يغتسل القارئ
فيتجدّد[١]
فالخيال هنا
أداة تعضد العقل
لأجل الإقناع
ودفع النفس إلى الاطمئنان بالبرهان العقلي
وبجمال الصورة الفنية
وما لها من تأثير ووقع على النفس
وهو ما يشابه ما أشرنا إليه من قبل
من معنى السعادة عند الفارابي...!
يا للعلماء وديدنهم
يرون

---

(١) المصدر السابق .

أن سعة خيالي،
وانفتاح نصي على التأويل
بالإضافة إلى نزعتي التمردية الرافضة للواقع
غير لائق ..!
على مختلف الأصعدة
المعرفية والقيمية
وحتى الشرعية والعقدية،
وإليكم ما يؤكد كلامي
حين قلتُ :

أجاز الشافعي فعال شيء
وقال أبو حنيفة لا يجوز
فضلّ الشيب والشبان منا
وما اهتدت الفتاة ولا العجوز
لقد نزل الفقيه بدار قوم
فكان لأمرهم فيهم يجوز
ولم آمن على الفقهاء حبسا
إذا ما قيل للأمناء جوزوا

فاختلاف علماء الدين في الأصول كما في الفروع[١]

وتكفير العالم لمن هو على غير مذهبه..!

واتخاذ علم العقيدة على مذهب معين

مع إقصاء لسائر المذاهب

عقائدياً

لأنظمة كل الدول والدويلات

والإمارات والولايات ..!

مع التأسيس لانحرافات خطيرة

يتبناها العام والخاص،

بل حتى حدود العامة والخاصة

أضحت انسيابية

لا يعرف لها معالم واضحة،

---

(١) كنموذج عن اختلاف الفقهاء و انحراف بعضهم عن الحق حتى أضحو يفتون بأهوائهم قال المعرّي:

أجاز الشافعي فعـــال شيء	**وقـــال أبو حنيفـــة لا يجوز**
فضل الشيب والشبان منـــا	**وما اهتدت الفتاة ولا العجوز**
لقد نزل الفقيه بدار قـــوم	**فكان لأمرهم فيهم يجـــوز**
ولم آمن على الفقهاء حبساً	**إذا ما قيل للأمناء جـــوزوا**

والتقية أضحت أسلوباً لكل مذهب يخشى الاضطهاد
ومع هذا التعدّد في المذاهب
وإمكانية تغير السلطان ولونه
بين عشية وضحاها..!
أصبح الجميع له ظاهر في العقيدة وله باطن يخفيه.
لهذا كان لي أيضاً ما أخفيه مثل الجميع
وقد صرّحت بذلك
مبرراً عدم بوحي بكل ما أعلم
بعجز الناس عن بلوغ المراد
من قولي وفكري ..!
تقولون أيها السادة
إنكم تعتبرون رسالة الغفران
من أهم سرودكم العربية
التي تعبّر عن نظام بنائي سردي
يشخّص حالة وعي المبدع
لأسئلة التعبير
والكتابة والحكي
خاصة في زمنكم

حيث تلحظون
تطوّر لحظة الوعي بالظاهرة الأدبية وتكونها
من خلال شكل السرد
وبنية الكلام فيه
ومن خلال غاية الثقافة ورؤاها
وإدراكها للعالم والذات
كلّ ذلك من أجل امتلاكها بلاغة الارتقاء
باللحظة الإبداعية إلى حالة سردية
يتفاعل فيها الزمن مع الكلام بكل أصنافه
أما قلتم أيها السادة
إنها تتميز ببلاغة الانفتاح على الحركية السردية
من خلال استدعاء أساليب ونصوص
وتطويع للغة التراسل
باعتماد السردي
كممارسة حكائية
تصنع حكاية عالم الجنة والنار.[١]

---

(١) د. زهور كرام ناقدة وأديبة من المغرب الخطاب السردي عند المعرّي - رسالة الغفران نموذجا – بحث أكاديمي ألقي في المهرجان العاشر لأبي العلاء المعرّي – معرة النعمان ٢٠٠٦

فالناس في نظري
عاجزون عن إدراك لغتي
عجزهم على الغوص في كنه أصل اعتقادي،
ويبقى الرابط الأكبر بين خيالي وعقلي
سواء بالنسبة لي
أو لمتعاطي نصيّ العلائي ..!
وهو أنه ما كان لخطابي
أن يعرف الثراء والتنوع والاختلاف في ذاته
لولا الخيال الذي طبع نصي المعقول..!
لأنه فتح الباب على مصراعيه
لتأويل لا حد له.
ومعلوم أن قابلية النص للتأويل
هو الذي يعطيه إمكانية الخلود،
وهو السر في خلود أعمال كثيرة
من مثل:
كليلة ودمنة
أعمال النفّري
الحلاّج

ابن سينا
وابن العربي
ولا يمكن لنص أن يكون قابلاً للتأويل
إذا لم يكن مفعما بالخيال
كما لا يمكن لعملية تأويل أن تتم
إلا بقدرة فائقة على التعبير
وعلى نقل المعنى
بين ضفاف العبارات
وهو ما يحتاج إلى فطنة وقّادة
وكياسة تجمع عقلاً لبيباً
قادراً على الاستدلال والاستنتاج
وخيالاً واسعاً
يطير بين مختلف المعاني في زمن قياسي.
لقد سعى الباحثون إلى تقديم تصوّر لنصي
انطلاقاً من الأنساق الضدية
بهدف الكشف عن تشكلات هذه الأنساق
ووظيفتها التي تؤسس المعاني والرموز والدلالات .
فتضارب الأضداد في شعري

يكشف عن وعيّ جوهرَ الصراع في الحياة ..!
هناك من حاول الدخول إلى مسببات كتابتي لرسالة الغفران،
والتي قيل عنها الكثير.
مستهلكين نفس الوعي النقدي
في رصد منطق تكونه
وحالته الإبداعية.
عندما يتعلق الأمر
بمكونات الإبداع
وآلية التلقي
وصولاً إلى عالم اللغات الحاملة لهذا الإبداع
فقد كان شائعاً في عصري
حضور قوي لصيغة التراسل
التي اعتبرها كثيرون
من باب إظهار البراعة اللغوية
وعرض مظاهر الذاكرة
وفي هذا يتباهى
المبدعون

والفقهاء

واللغويون.

لكنّ هذا المدخل

لقراءة مسببات كتابتي

تبعد نصي العلائي

عن إمكانيات إنتاجه للمعرفة

الأدبية والنقدية والثقافية[١].

قالوا إنني استحضرتُ الأضداد

وأعدتُ تشكيلها

بفعل طاقة اللغة

وولّدتُ منها أنساقاً متحركة

قادرة على استيعاب تصوراتي

حول إشكاليات الكون

وسعوا إلى دراسة النسق الضدّي في شعري

في مجال صراعي مع الإنسان والزمان والمكان .

وفي مجال الثنائيات الضدية

والصور التنافرية

---

(١) المصدر السابق .

والمفارقات اللغوية .

معتبرين أن الأنساق الضدية

شكلت في شعري

وظيفة جمالية

نقدتُ من خلالها الذات والآخر

لأعيد بناء العالم

وفق رؤيتي الخاصة

يقولون إنني بنيتُ من الواقع أحلاماً..!

ومن الحقيقة خيالاً

ومن الآلام آمالاً ..

حتى بدوتُ

وكأنني أعيش عالماً غير عالمي

وحياة غير حياتي

وأعتبر أنهم أنصفوني

حين طبقوا عليّ نظرياتهم النقدية المعاصرة لهم ..!

فغدوت شاعراً معاصراً من أيامهم ؛

بما قدّمتُ من رؤى ومشكلات وحلول

معتبرين أن الشاعر القديم - بالنسبة لهم -

يرسّخ قيماً معينة كما يفعل شاعرهم المعاصر .
فالشاعر القديم بنظرهم يلعب على وتر اللغة
يرونه يستخدم التشبيهات والاستعارات...
والأنساق الضدية .
معتبرين أن نقدهم الثقافي
يُعنى بالقواعد الأساسية لحركة المجتمع
ولمنافذ التغييرات
الفكرية والثقافية والسياسية
ويعدُّ الإبداع الشعري
واحداً من المتغيرات الفاعلة في المجتمع
حسب معطيات فكرهم النقدي
ما بعد الحداثي –
أي ما بعد حداثتهم هم ..!
بما يسمى الجماليات الثقافية
لأنهم يعتبرون أن تحليلهم الثقافي
سيركّز بشكل واضح على التمايز الثقافي
بين الطبقات الاجتماعية ..!
فقد اعتبروا أن حالة الصراع في المجتمع

بين الطبقات الاجتماعية

تسهم وفق منظور تحليلهم الثقافي

في ولادة العديد من المناهج

ذات المرجعيات

والأشكال السلطوية

كالصراع بين الأنا والآخر

والمركزيّ والهامشيّ...!

كانوا يحاولون

فك مضمرات النسق الشعري عندي

بوصفه واقعة جمالية ثقافية

تلتقي فيها الذاتُ الإنسانية

بالواقعَ الاجتماعيَّ في التجربة الثقافية ..!

كما ويلتقي بالواقعيّ المتخيل ..!

ينظرون لعالمي على أنه بناء ثقافي

متعدد الأنساق الجدلية ..!

والثقافة بوصفها آلة مولدة ..

هي تدمير وتنظيم ونمذجة...!

حتى أن منظّراً إفرنجياً اسمه فان ديك[١]

ذهب إلى أن دراسة النص الأدبي

بوصفه ظاهرة ثقافية

تعدُّ تتويجاً لدراسات سياقية

تبدأ بالنص التداولي

فالسياقي ..

فالمعرفي

ثم السياق الاجتماعي والنفسي

وأخيراً السياق الاجتماعي الثقافي

وربط كل دراسة سياقية

بهدف له علاقة بالنص الأدبي

تبدأ بالنص بوصفه فعلاً لغوياً

---

(١) الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية العلمية في القرن التاسع عشر – يوسف قزما الخوري – دار سورا قيا – الطبعة الأولى اشتهر الدكتور كرنيليوس فان ديك، خلال إقامته الطويلة في الديار الشامية بالعلم، والفضل، ولطف المعاشرة، والظرف، وسرعة الخاطر، فضلا عما اكتنف اسمه من الأساطير التي لا تزال تتردد على الألسن حتى يومنا هذا.

ثم بعملية فهمه وتأثيره

وأخيراً تفاعلاته مع المؤسسة الاجتماعية.

وتلازم هذه الدراسة الجانب الجمالي والجانب القبحي في التحليل الثقافي

أما الغذامي فيرى

أن النقد الثقافي

معني بنقد الأنساق المضمرة

التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي

بكل تجلياته وأنماطه وصيغه

بعد أن أعلن موت النقد الأدبي وولادة النقد الثقافي ..

فكيف يموت النقد الأدبي ..؟

وكيف يبني النقد الثقافي بنيانه على أنقاض ذلك النقد ..؟

وهل يتحقق النقد الثقافي

حين ينفصل عن جماليات اللغة والمعنى في الشعر ..؟

إنهم يعتبرون - يا سادتي –

أن الشعر العربي هو المخزن الخطر لهذه الأنساق

وأنه الجرثومة المستترة بالجماليات ..!

واسألوا الغذامي عن هذا ..!

كيف يعتبر الجمالية أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها..!؟

إنهم يحاولون النظر إلى شعري بعين الجمال

من أجل استخراج القيم السامية

والمآثر العظيمة

والصياغات اللغوية حيوية التفاعل،

وإيحائية الدلالة

فقد قالوا

إن في بنية قصيدتي العميقة

أنساقاً مضمرة تتعلق بنظرتي للوجود بكلية أضداده .

وتأويل هذه الأنساق المضمرة

من حيث هي مكونات ثقافية للمجتمع العباسي

وأنها تحتاج إلى تأويل ثقافي عميق

يبين طبيعة الموضوعات التي أنتجتها هذه الأنساق .

كل ذلك كي يصلوا

إلى خلاصة جهدي

في صراعي مع الزمان والمكان والإنسان

ولا أظنهم واصلون ..!

لذلك خشية من نسياني

ونسيان فلسفتي

في الحياة والموت

بفعل تقادم الزمان

طلبت من الجميع أن يزوروا قبري

لذي أمرتُ أن يُكتب عليه :

هذا جنــــــاه أبــي علــيّ

ومــا جــنــيــت على أحــد

وكانت وفاتي

عام تسعة وأربعين وأربعمائة للهجرة

الموافق لعام سبع وخمسين وألف للميلاد ..

وهناك من يقول ثمان وخمسين وألف للميلاد

الطبعة الأولى / ٢٠١٤م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

يعتبر المعرّي واحداً من أكثر الإشكاليات في الأدب العربي والفلسفة نظراً لكل ما حققه في كتاباته، حيث كان القرن الهجري الرابع الذي عاش فيه قرناً مميزاً ثقافياً على عكس ما كان عليه من تفتت للأقاليم التي استقلت بنفسها.

حيث عرف هذا العصر تنامي أثر الفلسفة وكتابة الرسائل والعمل في الدواوين وتدوين الأفكار والمحاورات في مجالس العلم الخاصة ومجالس الخلفاء والوزراء والأمراء؛ سيّما وأن ذلك العصر قد امتاز بترجمات هائلة عن اللغات الفارسية والهندية والسريانية واليونانية أسهمت كلها في إعلاء شأن الثقافة..

وفي هذا النص المفتوح (أنا المعري رهين المحابس) يقدّم الكاتب والناقد المسرحي والشاعر سمير عدنان المطرود شخصية المعرّي الإشكالية (شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء) بعيداً عن قسوة طبعه الموصوفة في كتب التراث، حيث جمّله فأخرجه عن قبحه الذي اعترف به نفسه وطوعه لكي يتحدّث عن شعره وفلسفته وأسباب كتابته للكثير من مؤلفاته، إضافة إلى ما قاله النقّاد والبحّاثة عنه.

يقدّم المؤلف عصر المعرّي وثقافته وأعلامه مما يجعل هذا الكتاب زاداً ثقافياً ومعرفياً بقيمة ملموسة استمدها المؤلف من تجربة أبي العلاء المعرّي وثقافته، إضافة إلى ثقافة عصره أيضاً.





www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٤م

سعر النسخة ٢٠٠ ل.س أو ما يعادلها